١٢ ـ شاعرنا العالمي

أبو العتاهية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

فنونه الشعرية : تناول أبو العتاهية لأول أمره من فنون الشعر الغزل والمدح والرثاء والهجاء والعتاب والاستعطاف وما إلى ذلك مما كان يتناوله غيره من الشعراء ، ثم استفرغ بعد ذلك جل شعره فى الزهد والوعظ والحكمة والمثل ، فأعطى الشعر العربي من ذلك ثروة عظيمة كانت تنقصه

فأما غزله فكان يذهب فيه مذهب الشعراء العشاق كجميل بثينة وغيره ، وإن كنا قد ذكرنا فى ترجمته أنه لم يكن صادق العشق مثلهم ، ولكن سجيته التى كانت تنازعه من أول أمره إلى قول الزهد ، لم تكن لترضى له أن يذهب فى غزله مذهب فساق الشعراء كامرىء القيس وعمر بن أبي ربيعة وغيرهما ، فجاء غزله عفيفاً بعيداً عن الفحش والفجور ، ليس فيه إلا شكوى الصبابة وألم الصد وعذاب الفراق ونحو ذلك من وجدانات أهل العشق ؛ ولعل هذا أيضاً مما كان يرغب المهدى والرشيد فى غزل أبى العتاهية ويجعلهما يغضبان عليه إذا أراد أن يتركه إلى الزهد ، مع أنهما كانا لا ينظران إلى غزل أحد غيره بتلك العين التى نظرا بها إلى غزله ، وأمر المهدى مع بشار فى غزله معلوم ، وكذلك أمر الرشيد مع أبى نواس ؛ وقد شاع الغزل بالمذكر فى عصر أبى العتاهية فصان نفسه عنه ، ولم يدنس شعره به ، وهذه شهادة مسلم بن الوليد فى غزل أبى العتاهية . ذكر أبو الفرج أن مسلماً قال : كنت مستخفاً بشعر أبى العتاهية فلقينى يوماً فسألنى أن أصير إليه ، فجاءنى بلون واحد فأكلنا ، وأحضرنى تمراً فأكلناه ، وجلسنا نتحدث ، وأنشدته أشعاراً لى فى الغزل ، وسألته أن ينشدنى ، فأنشدنى قوله :

بالله يا قرة العينين زورينى ... قبل الممات وإلا فاستزيرينى
إنى لأعجب من حبٍّ يقربنى ... ممن يباعدنى منه ويقصينى
أما الكثير فما أرجوه منك ولو ... أطمعتنى فى قليل كان يكفينى

ثم أنشدنى أيضاً :

أخلاىَّ بى شجو وليس بكم شجو ... وكل امرئ عن شجو صاحبه خِلْوُ
وما من محبٍّ نال ممن يحبه ... هوًى صادقاً إلا سيدخله زهو
بليتُ وكان المزحُ بدء بليتى ... فأحببت حقاً والبلاءُ له بدْو
وعُلِّقْتُ من يزهو علىَّ تجبراً ... وإنىَ فى كل الخصال له كُفْو
رأيتُ الهوى جمر الغضا غير أنه ... على كل حال عند صاحبه حلو

ثم أنشدنى :

خليلى مالى لا تزال مضرتى ... تكون مع الأقدار حتماً من الحتم
يصاب فؤادى حين أرمى ورميتى ... تعود إلى نحرى ويسلم من أرمى
صبرت ولا والله مابى جلادة ... على الصبر لكنى صبرت على رغمى
ألا فى سبيل الله جسمى وقوتى ... ألا مسعد حتى أنوح على جسمى
تُمدُّ عظامى واحداً بعد واحد ... فتحصى من المثال عظماً على عظم
كفاكِ بحق الله ما قد ظلمتنى ... فهذا مقام المستجير من الظلم

قال مسلم : فقلت له لا والله يا أبا إسحاق ما يبالى من أحسن أن يقول مثل هذا الشعر مافاته من الدنيا ؛ فقال يا ابن أخى لا تقولن مثل هذا ، فإن الشعر أيضاً من بعض مصايد الدنيا

وأما مدحه فقد كان مدحاً تجارياً لم ينطق فيه عن عقيدة ، بل كان يمدح به قوماً يخالفونه فى عقيدته الشيعية ، ولا يقصد من ذلك إلا الحصول على المال الذى أباح الشيعة أخذه من المتملك لأنه حق لهم ، فسار أبو العتاهية فى مدحه بقدر مايصل به إلى هذا الغرض ، ولم يدخل به فى الخصومة السياسية التى كانت قائمة فى عصره بين العباسيين والعلويين ، وذهب فيها كثير من الشعراء مذاهب باطلة ، ودفعهم حب مال العباسيين إلى أن يجعلوا حقهم فى ملك المسلمين بالإرث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يشاركهم فيه العلويون ولا غيرهم من المسلمين ، وفى هذا يقول قائلهم :

أنّى يكون وليس ذاك بكائن ... لبنى البنات وراثةُ الأعمام

ولم يفرح العباسيون بشيء فرحهم بهذه الفكرة الخاطئة ، فعدوها أكبر نصر لهم على خصومهم من العلويين ، وأغدقوا على من ابتكرها لهم شعراً مالا يحصى من الأموال ، وحملوا الشعراء على التفنن فيها ، وتصريف الشعر فى تأييدها ونشرها

فلم يصل مدح أبي العتاهية للعباسيين إلى هذا الحد، ولم يبع عقيدته بأموالهم فيفضلهم على العلويين أو يذمهم من أجلهم، بل كان على حبه للمال وبخله به يعرف كيف يرفضه إذا كان في قبوله إهانة له، أو حطاً من كرامته؛ ويمكننا أن نسوق على ذلك شواهد كثيرة، ذكر أبو الفرج أن أبا العتاهية كان منقطعاً إلى صالح المسكين، وهو ابن أبي جعفر المنصور، فأصاب في ناحيته مائة ألف درهم، وكان له ودوداً وصديقاً، فجاءه يوماً وكان له في مجلسه مرتبة لا يجلس فيها غيره، فنظر إليه قد قصر به عنها، وعاوده ثانية فكانت حاله تلك، ورأى نظره إليه ثقيلا، فنهض وقال:

أراني صالحٌ بُغضَا ... فأظهرتُ له بُغضَا
ولا والله لا ينقـ ... ـض إلا زدتهُ نقضَا
وإلا زدته مقتاً ... وإلا زدته رفضا
ألا يا مفسد الوُدِّ ... وقد كان له محضا
تغضبتَ من الريح ... فما أطلب أن ترضى
لئن كان لك المال الـ ... ـمصفّى إن لي عِرْضا

فنمى الكلام إلى صالح فنادى بعداوته فقال فيه:

مَدَدتُ لمعرض حبلا طويلا ... كأطول ما يكون من الحبال
حبالٌ بالصريمة ليس تفني ... موصَّلةٌ على عددَ الرمال
فلا تنظرْ إليّ ولا تَرِدْني ... ولا تَقرَبْ حبالُكَ من حبالي
فليت الرَّدمَ من يأجوج بيني ... وبينك مُثبتاً أخرى الليالي
فكرّشْ إن أردتَ لنا كلاما ... ونقطع قحفَ رأسك بالقتال

وذكر أيضاً أنه قدم يوماً منزل يحيى بن خاقان، فلما قام بادر له الحاجب فانصرف، وأتاه يوماً آخر فصادفه حين نزل فسلم عليه ودخل إلى منزله ولم يأذن له، فأخذ قرطاساً وكتب إليه:

أراك تَرَاعُ حين ترى خيالي ... فما هذا يَرُوعكَ من خيالي
لعلك خائف مني سؤالي ... ألا فلك الأمانُ من السؤال
كفيتُكَ إن حالك لم تَمِل بي ... لأطلب مثلها بدَلا بحالي
وإن اليسر مثل العسر عندي ... بأيهما مُنيتُ فلا أبالي

ولاشك أن هذه النفس في إبائها وعقيدتها المخالفة لعقيدة ممدوحيها لو كانت لغير أبي العتاهية لصعب عليها في الشعر مقام المدح، ولكن طبع أبي العتاهية في الشعر سهل عليه كل شيء، وجعله يأتي في ذلك من المدح بما أرضى ممدوحيه غاية الرضا، وكان على ما ذكرنا في ترجمته يقصر التشبيب أمام المدح ولا يطوله حتى يكون كأنه هو مقصوده من شعره، كما كان يفعل ذلك غيره

وكان ابن الاعرابي يتعصب لأبي العتاهية فتنقصه رجل أمامه ورمى شعره بالضعف، فقال له: الضعيف والله عقلك لا شعر أبي العتاهية، ألأبي العتاهية تقول إنه ضعيف الشعر؟ فوالله ما رأيت شاعراً قط أطبع ولا أقدر على بيت منه، وما أحسب مذهبه إلا ضرباً من السحر؛ ثم أنشده قصيدته في الزهد:

قَطَّعتُ منك حبائل الآمال
وحَطَطتُ عن ظهر المطيِّ رحالي

ثم قال للرجل هل تعرف أحداً يحسن أن يقول مثل هذا الشعر؟ فقال له الرجل: يا أبا عبد الله جعلني الله فداءك، إني لم أردد عليك ما قلت، ولكن الزهد مذهب أبي العتاهية، وشعره في المديح ليس كشعره في الزهد، فقال: أفليس الذي يقول في المديح:

وهرونُ ماء المُزْنِ يُشفى به الصَّدى
إذا ما الصدي بالريق غُصَّت حناجرُه
وأوسط بيتٍ في قريش لبَيتُه ... وأول عزٍ في قريش وآخره
وزحفٌ له تحكي البُرُوقَ سيوفُهُ
وتحكي الرعودَ القاصفات حوافره
إذا حَميَتْ شمسُ النهار تضاحكت
الى الشمس فيه بيضُهُ ومَغافره
إذا نكبَ الاسلام يوماً بنكبة ... فهرون من بين البرية ثائره
ومن ذا يفوت الموتَ والموتُ مُدْركٌ
كذا لم يَفُتْ هرونَ ضدٌّ ينافره

قال: فتخلص الرجل من شر ابن الاعرابي بأن قال له: القول ما قلت، وما كنت سمعت له مثل هذين الشعرين، وكتبهما عنه:

وأما رثاؤه فكان يذهب فيه مذهبه في الزهد والحكمة، لقرب مقامه من مقامهما، ومن ذلك رثاؤه في علي بن ثابت، وكان صديقاً له، وبينهما مجاوبات كثيرة في الزهد والحكمة، فحضره أبو العتاهية وهو يجود بنفسه، فلم يزل ملتزمه حتى فاض، فلما شُدَّ لحياه بكى طويلاً، ثم أنشد يقول:

يا شريكي في الخير قرّبك الله فنعم الشريك في الخير كُنتا
قد لعمري حكيت لي غُصص الموت فحركتني لها وسكنتا

ولما دفن وقف على قبره يبكي طويلاً أحر بكاء ويردد هذه الأبيات:

ألا مَنْ لي بأنسك يا أُخيَّا ومن لي أن أبثك ما لديَّا
طوتْكَ خطوبُ دهرك بعد نشر كذاك خطوبه نشراً وطيَّا
فلو نشرت قُواكَ لي المنايا شكوتُ إليك ما صنعت إليَّا
بكيتك يا عليُّ بدمع عيني فما أغنى البكاءُ عليك شيَّا
وكانت في حياتك لي عظاتٌ فأنت اليوم أوعظ منك حيَّا

وهذه المعاني كما قال أبو الفرج أخذها كلها من كلام الفلاسفة لما حضروا الاسكندرية ، وقد أخرج ليدفن ، قال بعضهم : كان الملك أمس أهيب منه اليوم ، وهو اليوم أوعظ منه أمس ؛ وقال آخر : سكنت حركة الملك في لذاته ، وقد حركنا اليوم في سكونه جزعاً لفقده . وهذان المعنيان هما اللذان ذكرهما أبو العتاهية في هذه الأشعار

وذكر أبو العتاهية أنه ماتت بنت للمهدي ، فحزن عليها حزناً شديداً حتى امتنع عن الطعام والشراب ، فقلت أبياتاً أعزيه بها ، فوافيته ، وقد سلا وضحك وأكل وهو يقول : لابد من الصبر على مالا بد منه ، ولئن سلونا عمن فقدنا ، ليسلون عنا من يفقدنا ، وما يأتي الليل والنهار على شيء إلا أبلياه ، فاستأذنته في إنشاد ما قلت فأذن :

ما للجديدين لا يَبْلى اختلافهما وكل غضٍّ جديد فيهما بالِ
يا من سلا عن حبيب بعد مَيْتَتِه كم بعد موتك أيضاً عنك من سالِ
كأن كلَّ نعيم أنت ذائقُه من لذة العيش يحكي لمعة الآلِ
لا تلعبنَّ بك الدنيا وأنت ترى ما شئت من عبرٍ فيها وأمثالِ
ما حيلةُ الموت إلا كلُّ صالحةٍ أو لا فما حيلةٌ فيه لمحتالِ

وأما الهجاء فكان أبو العتاهية يترفع عنه ولا يقوله إلا مضطراً ، فإذا قاله لم يفحش فيه كثيره ، وكانت بينه وبين والبة بن الحباب مهاجاة حينما قصد والبة بغداد وهو كوفي مثله ، فحسده على أن بلغ في بغداد مالم يبلغه ؛ وأخذ يهجوه ويذمه . وقد حدّث محمد ابن عمر الجرجاني قال : رأيت أبا العتاهية جاء إلى أبي فقال له : إن والبة بن الحباب قد هجاني ، ومن أنا منه ؟ أنا جرار مسكين — وجعل يرفع من والبة ويضع من نفسه — فأحب أن تكلمه أن يمسك عني ، فكلم أبي والبة فلم يقبل ، وجعل يشتم أبا العتاهية فتركه ، ثم جاءه أبو العتاهية فسأله عما فعل في حاجته ، فأخبره بما رد عليه والبة ، فقال لأبي لي الآن عليك حاجة ، قال وما هي ؟ قال لا تكلمني في أمره ، فقال هذا أول ما يجب لك ، فقال أبو العتاهية يهجوه :

أوالبُ أنت في العرب كمثل الشيص في الرُّطب
هَلمَّ إلى الموالي الصِّيد في سَعةٍ وفي رَحب
فأنت بنا لَعمرُ الله أشبهُ منك بالعرب
غضبتُ عليك ثم رأيت وجهك فانجلى غضبي
لما ذكَّرتني من لونِ أجدادي ولون أبي
فقل ما شئت أقبَلهُ وإن أطنبتَ في الكذب
لقد أخبرْتُ عنك وعن أبيك الخالص العرب
فقال العارفون به مُصاصُ غيرُ مؤتَشب
أتانا من بلاد الروم مُعتجِراً على قتب
خفيف الحاذ كالصمصام أطلسُ غير ذي نشب
أوالب ما دهاك وأنت في الأعراب ذو نسب
أراك وُلدتَ بالمريخ يا ابن سبائك الذهب
لجئت أقيشرَ الخدين أزرق عارمَ الذنب
لقد أخطأتَ في شتمي تَخيَّرني ألم أُصب

وقال فيه أيضاً غير ذلك ، فبلغ والبة ، فجاء أبي فقال قد كلمتني في أبي العتاهية وقد رغبت في الصلح ، فأخبره بما أخذه أبو العتاهية عليه ، فقال له والبة فما الرأي عندك ؟ قال تنحدر إلى الكوفة ، فركب زورقاً ومضى من بغداد إلى الكوفة ، وكان هجاء والبة فيه ضعيفاً سخيفاً لا يقوى على هذا الهجاء ، وفيه من الفحش ما نروي بعضه ليعلم بعد ما بين الهجاءين :

قل لابن بائعة القِصار وابن الدَّوارق والجِرار
. . . .
تهجو مواليك الأولى فكوكَ من ذُلِّ الاسار

هذا مثل من هجوه وإن الشعر لأعلى مقاماً من هذا القبح الذي أتى به ، وإنه لينال من نفسه بذلك قبل أن ينال ممن يهاجيه

عبد المتعال الصعيدي